Journal of Alasmarya University
Volume 1, June 2003

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الأول، يونيو 2003

الألف بين الحرف والحركة

الدكتور
عبد الحميد علي أبو مداس
جامعة المرقب

Journal of Alasmarya University
Volume 1, June 2003

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الأول، يونيو 2003

الألف بين الحرف والحركة

لقد اخترت هذا العنوان كمدخل لموضوع يجول في النفس، وهو أوسع بكثير من الألف في حد ذاته وما تعتريه من حالات مختلفة، سواء في رسمه أو في نطقه أو فيما يتوارد عليه من المعاني والأسماء والصفات، فتارة نسميه ألفا وأخرى همزة وحينا ألفا مقصورة، أو نصفه بالمد وهلم جرا، وإن كان محور هذا البحث والقطب الذي يدور عليه هو الألف، إلا أن الموضوع سيتطرق إلى ما هو أشمل من ذلك، إذ سيتناول ـ مثلا ـ بعض تحليلات الصرفيين التي لها علاقة ما بالألف ومدى صدقها وواقعيتها ـ بمعنى تأييد الواقع لها ـ إلى غير ذلك من النقاط المختلفة التي قد تكون بعيدة عن بعضها، ولكن نقطة التقائها الألف.

فهل هي ـ مثلاً ـ صوت مستقل أو حركة تابعة لغيرها من الحروف ـ جميع الحروف الهجائية ـ دون استثناء؟ وهل لها معنى مستقل؟

وهل هي حركة أو حرف؟ وهل هي زائدة أو أصلية؟ وهل هي فونيم (Phoneme) أو ألفون (Allophone)؟ بمعنى هل تؤثر في المعنى و تغيره أم فقط يقتصر التغيير معها على النطق؟ وهل هي صوت أم لا؟ وإذا كان كذلك؛ فهل هي أو هو مهموس أو مجهور؟ وما علاقتها بالهمزة والواو والياء؟ وهل هذه الألف أو هل الألف تتولد من لا شيء كما يعتقد الصرفيون مما هو مستنتج واضح من تحليلاتهم، أم هي فقط تحليلات طغت عليها أو أثرت فيها الصورة الكتابية، أما الواقع فهو بخلاف ذلك تماما؟ كل

هذه الأسئلة وغيرها سيتناولها هذا البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ بطريقة مدعمة بأدلة وتحليلات منطقية تزيل عنها كل غموض وتزيح عنها كل لبس.

الألف هل هو صوت أو حرف؟ وما الفرق بينهما؟ وما نوع العلاقة التي تربطهما؟ الحرف من حيث هو رمز كتابي، أما بالنسبة للألف فهو رمز كتابي قد ينطق وقد لا ينطق، وعدم النطق أكثر أحواله، بل يفوت هذا الحد، فأحيانا الألف لا ينطق ولا يكتب، فهو إذن موجود بالقوة، إذ صفتا الوجود الرئيستين وهما النطق والكتابة معدومتان معه، وهذه ربما حالةٌ تخصُّ الألف دون سائر بقية الحروف أو الأصوات اللغوية، هذا هو الحرف، أمّا الصوت فهو حيز ينطق وقد يكتب أي يرمز له، وقد لا يكتب أصلاً، وهذا كثير في الإملاء وأكثر منه في الرسم العثماني الخاص ـ طبعاً ـ بكتابة القرآن الكريم.

من هنا العلاقة بين الصوت والحرف هي علاقة عموم وخصوص وجهي إذ يلتقيان فيما يرسم وينطق معا. وهي الأعم الأغلب في الأصوات / الحروف ويختص الحرف فيما يكتب فقط، ويختص الصوت فيما ينطق فقط، وبالمثال ـ كما يقولون ـ يتضح الإشكال، فالكلمات «هذا، ذلك، أولئك» ينطق فيها الألف ولا يكتب، والكلمات «كتبوا، وذهبوا، وكتبا» فيها الألف مكتوبة، ولكنها إما غير منطوقة أصلا، أو نطقت بصوت لا يمت للألف بصلة.

مما سبق ذكره يتبين لنا أن الألف حرف لا شك في ذلك، ولكن هل هو صوت أم لا؟ سيأتي نقاش هذه النقطة لاحقا، ولنتفرغ الآن إلى جانب الحرفية فيه وما لها من خصوصية قد لا توجد في أي حرف آخر. فالحرف من حيث هو له عدة قضايا من حيث علاقته بالمعنى، فهناك أحرف تسمى بأحرف المعاني، وهي في الحقيقة كلمات، ولكنها أحيانا تبنى على حرف واحد كبعض أحرف العطف والاستفهام والجر، فهذه تستقل بالمعنى، وهو ما أطلق عليه في البحث المعاصر بالمورفيم (morpheme)، وقسم لا يستقل

بالمعنى، وإنما يشكل مع غيره معنى بحيث لو غيرت هذا الحرف لتغير المعنى، وهذا يسمى بالفونيم (phoneme) فمثلا كلمة «قلم» لو غيرت القاف عينا لأصبحت «علم»، وهي كلمة جديدة لا تمت للأولى بصلة وهذان القسمان أسميناهما حروفا فقط مجاراة للنظام الكتابي وإلا فهي أصوات لغوية سبقت الرموز الكتابية الحديثة بآلاف السنين كما يقول علماء اللغة، هذا هو الحرف مطلقا.

أما الحرف الذي نحن بصدد الحديث عنه ـ وهو الألف ـ فهو لكثرة ما تعتريه من حالات؛ تجدُ كتب الإملاء دائما تخصص له جانبا لا بأس به من الاهتمام والدراسة ويشارك الواو والياء ـ عادة ـ الألف في هذه الدراسة، فكلها يطلق عليها أحرف مد أو علة، كما يطلق عليها أحرف لين، ولكن الألف فقط هو الذي يطلق عليه حرف مد ولين في آن واحد، ولا بد أن يكون كذلك، أما الواو والياء فلا يجتمع فيهما ذلك، فإما أن يكونا حرفي لين، وذلك إذا سبقتا بفتحة في مثل «يوم، وبيت»، وإما أن يكونا حرفي مد فقط، وذلك مثل «يقول ويسير»، وذلك إذا سبقت الواو بضمة والياء بكسرة[1]، أما الألف التي نحن بصددها، فليس لها إلا أن تسبق بفتحة، وذلك لأنها في الحقيقة جزء من الفتحة وليست مستقلة عنها بحال كما استقلت الواو والياء عن الضمة والكسرة.

فحقيقة هذه الألف ـ إذا ـ وهي حرف مد ليست إلا فتحة طويلة، وهذا أيضا يصدق على الواو والياء أحيانا، ومما يجدر ذكره هنا القاعدة العامة التي تقول: لا توجد ألف أصلية في اللغة العربية، كالواو والياء، فهما أصليتان أحياناً ـ بمعنى أن الألف لا تكون أبداً كالكاف في كلمة (كتاب) أو العين في كلمة (علم) ـ وإنما جميع الألفات الموجودة في اللغة العربية، إما زائدة أو منقلبة عن أصل، وهذا الأصل محدود، فهو كثير جداً ما يكون واواً أو ياءً،

(1) انظر: المعجم الوافي في النحو العربي ص 18.

وقليل جداً ما يكون همزةً، وحينما تذكر هذه القاعدة، إنما نتكلم على المستوى الصرفي، أي: نتكلم عن الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفة، أما الحروف والأسماء المبنية والأفعال الجامدة فلا علاقة لها هنا؛ لأن بعض الألفات التي تظهر فيها تصنف على أنها مجهولة الأصل[2]، فهذه الألف ـ إذن ـ ليست حرفاً كبقية حروف الهجاء يبدأ بها الكلام وتستقل بالوجود، ولكنها في الواقع لا تزيد عن كونها جزءاً، من حركة الفتحة. فما هو الفرق بين الحرف والحركة يا ترى؟

الأنظمة الكتابيَّة مختلفة ومتنوعة، ومن بينها، بل ومن أهمها: نظام الكتابة العربية لعلّ هذا النظام دون كثير من الأنظمة الأخرى يتصف بالإجحاف وعدم الإنصاف بين أصوات اللغة عند رسمها، فجميع اللغات ـ أو التي نسمع بها على الأقل تحتوي على قسمين رئيسيين من الأصوات: ساكنة ومتحركة ـ وبعبارة أدق ـ صحيحة ومعتلة، وهو ما أطلقنا عليه حرفاً وحركة، وعدمُ الإنصاف هنا هو أن نظام الخط العربي لم يخصص للحركات حيزاً على السطر كالحرف، بل إنه فرق بين الحركات، فإن كانت طويلة فحظها ـ أحياناً وليس دائماً ـ أحسن من القصيرة التي لا حق لها مطلقاً في الظهور وسط السطر، مما ترتب عليه كثير من الخلط عند التحليل الصرفي، وهو ملاحظ عند أول نظرة فاحصة، ولنناقش معاً ـ على سبيل المثال لتوضيح هذه النقطة ـ القاعدة الصرفية التي تقول: إذا تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفا، فلو أننا نؤمن باستقلالية الحركة وأنها صوت له صورة وحدود محصورة، ويؤثر في المعنى مثلُه مثلُ أي صوت آخر واستقطعنا له جزءاً من السطر لتغيرت هذه القاعدة رأساً على عقب ولكانت بطريقة أكثر منطقية، ولنكتب مثالاً باللاتينية؛ لأنها لا تسقط الحركات من حسابها في الكتابة. فمثلاً لو كتبنا «قال» و«سار» التي هي في الأصل «قوَل» و«سيِر» ـ لو كتبناهما بهذه الطريقة: (qawala) / (sayara) ثم أصبحت بعد

(2) انظر: لسان العرب: ج1 ص3.

إسقاط الواو=w والياء=y بهذا الشكل: (qaala)/(saara)، فأنت تجدنا قد وصلنا للنتيجة التي ناقشها الصرفيون وتوصلوا إليها بالقلب وهي لا تحتاج إلى أكثر من إسقاط الواو والياء تخفيفا، وبقيت حركتاهما اللتان أضيفتا إلى حركة فاء كلتيهما فأصبحت فتحة طويلة، وهو الاسم الصحيح للألف.

ومن هنا يتبين لنا كيف أن لنظام الرسم أثرا على التحليل الصرفي، وجعلنا نعتبر أشياء ونعبر عنها، وهي في الواقع لا وجود لها، أو بعبارة أخرى هناك طريقة للتحليل أقرب للواقع وتتمشى مع العقل أكثر، خاصة بين علماء اللغة، فلو قلنا بدلا من القاعدة الصرفية السابقة: إذا وقعت الواو والياء بين فتحتين سقطتا وأصبحت الفتحتان فتحة طويلة، لكانت نتيجة طبيعية سهلة الإدراك، وسأسوق مثلا آخر مشابها لهذا، وله علاقة بالألف أيضا، وهو ما يسميه النحاة بميم العماد، وهي التي تتوسط بين حرفي الخطاب «التاء والكاف» وبين الألف التي تأتي في النهاية كعلامة على تثنية المخاطب، مثل «أنتما وإنكما» وهما تثنية الضمير أنت، والكاف الذي هو ضمير نصب هنا؛ لأنه وقع اسما لـ «لإن»، ولكن إذا كان أصل الضميرين الفتح الظاهر على التاء والكاف عند الإفراد، والألف الذي هو علامة التثنية يتناسب مع هذا الفتح الذي يظهر أصلا على الضمير، فلماذا كل هذه التغيرات التي هي ضم الضمير، وإقحام الميم التي سميناها حرف عماد؛ لأن الألف اعتمد عليها؛ لأنها هيئت له الفتح المناسب له، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا الضم أصلا؟

يقول علماء اللغة العرب: إن ضم التاء في «أنت» ـ وهو نص في حاشية الصبان[3] ـ لأن الميم تشبه الواو في المخرج، أي إنهما شفويتان وفي معنى الجمع ـ لأن الواو غالبا للجمع ـ وفي هذا إشارة أيضا إلى أن المثنى نوع من الجمع وإلاّ لماذا رشحت الميم دون بقية أحرف الكتابة لهذا الغرض

(3) انظر: حاشية الصبان على الأشموني ج1 ص 109.

- ونحن أتينا بهذه الميم فراراً من اللبس الذي قد ينشأ فيما لو ألحقنا الألف بالضمير مباشرة عند التثنية فقلنا «أنتا وإنكا» بدلا من «أنتما وإنكما»؛ لأن هذا من شأنه أن يلتبس بالمفرد والألف للإشباع فقط، إلا أن هناك تحليلا آخر لعلماء اللغة المحدثين نعرضه أمام القارئ ونترك الخيار له في الحكم والترجيح أو التسوية في القبول والرفض.

يرى علماء اللغة المحدثون أن اللغة العربية تاريخيا مثلها مثل بقية اللغات الأخرى تحتوي على المفرد والجمع فقط، ويؤيد هذا أن التثنية أقل الجمع، وأن كثيرا من الآيات القرآنية تعامل المثنى معاملة الجمع في رد الضمير، فمثلا قوله تعالى ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[4] بدلا من «طائعتين»، ومثل قوله - تعالى - ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[5]، وليس «اقتتلتا»، إلى غير ذلك من الشواهد التي تظهر بكثرة ملفتة للنظر في كتب النحو والتفسير.

إذن دعونا نفترض أنه مضت فترة طويلة من الزمن واللغة العربية ليس فيها إلا المفرد والجمع أسوة ببقية اللغات الأخرى، ولكن بعد تطور اللغة أرادوا أن يميزوا نوعاً من الجمع وهو ما يدل على اثنين فقط بعلامة مميزة، فعمدوا لصيغة الجمع التي هي «أنتم»، وأضافوا إليها «الألف» التي هي العلامة الطبيعية للتثنية وأصبحت كما هي عليه الآن «أنتما»، أليس هذا منطقياً أكثر؟ وما قيل في «أنتم» يمكن أن ينسحب على «إنكم» سواءٌ من وجهة النظر العربية، بأن الميم للاعتماد وضم الكاف لما في الميم من تشابه مع الواو، أو من وجهة النظر الحديثة وهي أنَ الجمع «أنكم» أردنا تمييزه، فزدناه الألف فأصبحت «أنكما» وكذلك «إياكما»، وحتى «إنهما»؛ لأن الفرق فقط هو أن ما قبل الميم مضموم في حالة الغائب «إنه»، أما الغائبة وهي «إنها»، وتثنيته «إنهما» فإننا نحتاج إلى نفس الخطوات مع التغييرات التي أجريناها مع «إنكما» و«أنتما» ولنترك الخيار للقارئ في تأييد أي من الرأيين،

(4) سورة فصلت، الآية 10.

(5) سورة الحجرات، الآية 9.

ولنرجع الآن للألف، فقد قال ابن منظور[6]: «وسمي بالألف؛ لأنه يألف جميع الحروف»، وهو يقصد أن هذا الحرف أو الرمز يدخل على جميع الحروف ويظهر في أي مكان من الكلمة قبل الفاء وبعدها، وبعد العين وبعد اللام في مثل: «اكتب ـ كاتب ـ كتاب ـ وكتباً في حالة النصب»، وقد أشرنا في بداية البحث إلى أن هذا الرمز أطلق عليه العديد من الأسماء، وقد قسمه ابن منظور[7] إلى ألف وصل وقطع وأصلي وزائد، وهذا إنما ينطبق على الهمزة لا على الألف.

إذن هناك العديد من الحروف تظهر في صورة الألف وهي ليست كذلك، وهذا بالتالي ينتج بالضرورة أن الألف له عدة أسماء، فـ «نون التوكيد الخفيفة» ـ مثلاً ـ في (لنسفعاً)[8] تظهر في صورة الألف، وكذلك «التنوين» في حالة النصب مثل: «أحداً»، وهمزة الوصل. هذا من حيث أسماؤها، أما من حيث استعمالاتها ومعانيها: فهي تكون اسماً أعني ضمير رفع دالاً على اثنين مبنياً على السكون في محل رفع فاعل دائما، كما أنه ينوب عن علامتي إعراب، فينوب عن الفتحة في الأسماء الخمسة، وينوبُ عن الضمة في المثنى، ويكون مع النون علامة التثنية في حالة الرفع وفي غير الإضافة، أما في حالة الإضافة فإن النون تحذف ويبقى الألف وحده علامة للرفع، وهي علامة لفظية، وللتثنية ـ أيضاً ـ وهي علامة معنوية. ومن خواص الألف أنه يدخل على بعض الحروف فيكسبها معنى ما كانت لتوصف به لولاه، فمثلا: حرف الميم إذا دخل عليها الألف يكسبها عشرة أحوال[9] خمسة على أنها اسمية، وخمسة على أنها حرفية، أي: من حروف المعاني، ولولا ذلك لبقيت من حروف الهجاء التي هي في الواقع لا تزيد عن كونها

(6) انظر لسان العرب ج1 ص1.

(7) انظر: المرجع السابق الصفحة نفسها.

(8) سورة العلق، الآية 16.

(9) انظر: المفرد العلم في رسم القلم للسيد أحمد الهاشمي، ص 147 ـ 150.

أسماء لرموز كتابية، وهذه الألف لا تكون في بداية الكلمة، أما التي تقع في بداية الكلمة فهي همزة الوصل، وإنما سميت ألفا؛ لأنها تظهر دائما في صورته، أما الألف اللينة فهي لا تكون في بداية الكلمة؛ لأنها لا تكون حرفا أصليا من بنية الكلمة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وتدخل أيضا على حرف اللام، واللام والميم من أكثر الحروف تكرارا في اللغة العربية، إن لم يكن في أغلب لغات البشر، لعله لسهولة نطقها وبعد مخارجها عن حروف الحلق المشهورة بالصعوبة وخلو أكثر اللغات منها، لهذا ولغيره من الأسباب كانت الألف أكثر الحروف ظهورا في الكتابة على الإطلاق، إلا أن ابن منظور قال بأنها أكثر الحروف نطقا، والألف ليس لها نطق مستقل، وإنما تكتسب نطقها من مد حركة الحرف الذي تدخل عليه أو تقترن به، وهي حين تدخل على اللام تكسبه معاني مختلفة لا تصل إلى كثرة الميم، ولكنها أيضا متعددة فاللام مع الألف تكون نافية، وتعمل في الجملة الاسمية عمل «كان» تارة، وعمل «إن» تارة أخرى، حسب المعنى الذي يريده مستعمل اللغة، وتكون ناهية، فتعمل الجزم في الفعل المضارع، وتكون زائدة، فلا عمل لها ولا معنى كذلك، ولا أقصد بالزيادة الألف وحدها، وإنما اللام مع الألف، مثل قوله تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[10] وتدخل على النون فتغير معناها وبناءها، فبدلا من أن تكون نون نسوة مبنية على الفتح في محل رفع فاعل، حين تدخل عليها الألف تصبح نون المتكلمين، وتبنى على السكون؛ لأجل الألف بدلا من بنائها على الفتح بدونه، وتتعدد محالها الإعرابية، فبدلا من أن تكون في محل رفع فقط على الفاعلية بدون ألف، تكون في محل رفع على الفاعلية، أو النيابة، أو في محل نصب على المفعولية، أو في محل جر بحرف الجر أو بالإضافة، وتدخل أيضا على أخويها الواو والياء اللذين يشاركانها في أنها كلها تشكل أحرف العلة، فتدخل على الياء فتصبح حرف نداء ينوب مناب الفعل «أدعو» ولولا الألف لما كان هذا المعنى للياء أبدا،

(10) سورة الأعراف الآية 12.

وتدخل أيضا على الواو فتكسبه أيضا معنى جديدا، وهو نوع خاص من النداء يسمى الندبة مثل: وازيداه!، بل لا بد أن يقوّى هذا المعنى بألف أخرى في نهاية الاسم المندوب كما هو واضح من الأمثلة . كذلك تشكل الألف مع الهاء ضمير المؤنثة الغائبة، أما من حيث الفونيم (phoneme) والمورفيم (morpheme)، فالألف إذا كانت ضميراً فإنها مورفيم؛ لأنها تضيف معنى مستقلاً جديداً للكلمة، وهذا هو المورفيم، وكذلك إذا دخلت على الفعل فحين تقارن بين «كَتَبَ» و«كاتَبَ» تجد المعنى مختلفاً، وتجد معنى جديداً، والسبب الرئيسي هو إضافة الألف، فهنا يمكننا أن نعتبر أن مثل هذا الألف مورفيم (morpheme)، أما إذا دخل على «ما» و«لا» ـ مثلاً ـ فإنه غير المعنى فقط، ولكن الألف هنا لم يستقل بالمعنى، وإنما كون مع الميم واللام النفي أو النهي، فهو إذن فونيم (phoneme)، نسيتُ أن أذكر أنَ هذه الألف تدخل على الواو في بداية الكلمة، وقد تكلمنا عن هذا، وهي فونيم أيضاً، ولكنها تدخل على الواو في نهاية الكلمة، وهي التي تسمى بالألف الفارقة وسماها ابن منظور[11] بالألف الفاصلة والمعنى واحد، إلا أنه أخطأ عند التمثيل فألحقها بالواو التي من بنية الكلمة، وهي إنما تدخل على واو الجماعة التي هي زائدة على الكلمة، فقال في مثل «شكروا» و«كفروا» وهذا صحيح، ثم قال: وكذلك الألف في مثل «يغزوا» و«يدعوا» وهذا خطأ، ولعله من سهو النساخ، أو ربما أراد «لم يغزوا» و«لم يدعوا»، أو هو خطأ مطبعي تجب الإشارة إليه. وهذه الألف ـ أعني الفارقة ـ تشبه كثيرا همزة الوصل التي تسمى أحيانا ألفا[12] في كونها تكتب ولا تنطق، إلا أن سبب عدم نطقها يختلف عن همزة الوصل، فألف الوصل لا تنطق تخفيفا في درج الكلام وتنطق ابتداء، أما هذه الألف فهي لا تنطق أبدا كصوت مستقل؛ إذ لا وجود لها في الحقيقة، وإنما تنطق تبعا لفتح ما قبلها «التنوين

(11) لسان العرب ج1 ص1.

(12) انظر: المعرف بأداة التعريف ـ شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ج1 ص105 .

بالفتح» وهذه ـ أي الألف الفارقة ـ إنما سبقت بضمة طويلة مما يجعل من المستحيل ظهورها في النطق.

العلاقة بين الهمزة والألف

الألف ـ كما أشرنا سابقا ـ تألف جميع الحروف كما يشير إليه اسمها، ولكن هناك علاقة خاصة بينها وبين الهمزة، فالهمزة إذا سهلت وهي مفتوحة قلبت ـ أو بعبارة أدق رسمت ـ ألفا، مثل: «سأل تصبح سال» كما قرئ بها في سورة المعارج **(سال سايل)**[13]، والألف إذا أردنا أن ننبرها أو نحركها ـ على افتراض أنه يمكن تحريكها ـ فإنها تكتب وتنطق همزة، كما قرئ بها في سورة الفاتحة **(ولا الضألين)**[14] وكذلك عندما نضطر لتعليم النشأ في الكتاتيب، فإننا نبدأ أولا بتعليم وتحفيظ رموز الكتابة: ألف، باء، تاء، مطلقا، أي دون الفرق بين المعجم منها والمهمل، ثم بعد حفظها عن ظهر قلب، ننتقل بالطفل إلى التفريق بين المنقوط وغير المنقوط ـ المعجم والمهمل ـ، وبعد أن يحفظ هذه ننتقل إلى تعليمه الحركات وكيف تنطق، فالباء مع الضمة تنطق «بو» ومع الكسرة «بي» وهكذا بقية الحروف، ولكننا نبدأ بالألف! فكيف تظهر عليه الحركات، وهو لا يقبلها؟ إننا ـ ولا شك ـ نلجأ إلى أقرب الحروف إلى الألف، وهو الهمزة، فنقول: الألف مع الفتحة ينطق «ء ا»، ومع الضمة «ء و» ومع الكسرة «ء ي» إلى آخره، هذا ما وصل إليه خيالنا، وما اتفق عليه الجميع.

وإذا ما رجعت إلى المعرَّف بأداة التعريف في كتب النحو، فتجدها تعتبر الألف التي تصاحب لام التعريف همزة وصل، وهي الهمزة الوحيدة التي تلحق الحرف، أما بقية الحروف فجميع همزاتها قطع، مثل: «أم» أو «إن» الخ، هذه الهمزة التي تلحق أداة التعريف لا يعبر عنها النحاة إلا

(13) سورة المعارج، الآية 1.

(14) سورة الفاتحة الآية 7.

بالألف؛ فيقولون: المعرف بالألف واللام[15]. وكما أن الهمزة إذا سهلت قلبت ألفا في حال الفتح، فإن الألف ـ أيضا ـ أحيانا تقلب همزة في بعض التغييرات الصرفية التي تعتري حروف اللين والعلة، فمثلا كلمتا «قلادة و رسالة» عند جمعهما جمع تكسير تجد الألف فيهما تقلب همزة فنقول: «قلائد ورسائل»، وهذا ـ أيضا ـ يدل على العلاقة الوطيدة بين الألف والهمزة، حتى إننا نعبر بالهمزة ونريد الألف، ونعبر بالألف ونريد الهمزة.

يقول إبراهيم أنيس في كتابه «الأصوات العربية»[16] نقلا لرأي ابن جني في كتابه «سر صناعة الإعراب»: «ويبدو أن ابن جني كان يعتبر كلمة الألف اسما للصوت المنطوق به همزة، فالألف في رأيه رمز المكتوب والهمزة رمز المنطوق»[17] ورأي ابن جني ـ في اعتقادي ـ كان قبل أن يفرق كتابة بين الهمزة والألف بالعين الصغيرة، التي توضع على رأس الألف غالبا، كرمز مميز للهمزة، وقد تكون على الألف، أو الواو، أو الياء، أو على السطر، دون أي حرف حسب حركتها وحركة ما قبلها، كما هو مقرر في درس الإملاء والخط.

وعلاقة الألف بأخويها الواو والياء لا تقل أهمية عن الهمزة، وقد عقد لها الصرفيون بابا يسمى الإبدال والإعلال، بالإضافة إلى بابي التصغير والتكسير، فإنهم يقولون: إن الألف الزائدة تقلب دائما واوا في التصغير والتكسير[18]، فأنت تقول في تصغير «كاتب» وتكسيرها: «كويتب» و«كواتب»، وبالمثل فإن كلا من الواو والياء ينقلبان ألفا إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما، وقد سبقت الإشارة لهذه القاعدة الصرفية مع ما عليها من ملاحظة.

(15) انظر: المعرف بأداة التعريف ـ شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ج1 ص105.

(16) انظر: الأصوات اللغوية ص 115.

(17) انظر المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(18) أما إذا كانت الألف غير زائدة فإنها ترجع إلى أصلها، وفقا للقاعدة المشهورة «التكسير كالتصغير يرد الأشياء إلى أصولها».

هذا بالنسبة للألف الزائدة، أما المنقلبة عن أصل فإنها ترد إلى أصلها في التكسير والتصغير، فتقول في «باب»: «أبواب» و«بويب»، وفي «ناب»: «أنياب» و«نييب»، هذا ما يقرره الصرفيون، ولكن انقلاب الواو ياء أو ألفا، والعكس. إنما هو من تأثر الصرفيين بالنظام الكتابي، وهذا في نظري ما هو إلا ضرب من الأوهام، إذ الواقع لا يوجد ألف، ولا واو ولا ياء، وإنما هي حركات طويلة ميزناها عن أصولها القصار. ومعظم هذه القواعد لا تتمشى مع طبيعة اللغة التي يجب أن نخضع القواعد لها، لا أن نخضعها للقواعد، أي إن الذي ينسجم مع اللغة هو الدراسة الوصفية لا المعيارية، والواو في كلمة «طويل» كصوت له مخرج وصفة وحركة، والواو في «يطول» الذي هو مجرد حركة فقط، وإن اتفقا في الرمز المكتوب. ومثل هذا يقال في الياء، ومن هذا يظهر لنا جليا تأثر التحليل الصرفي بالشكل الكتابي مع أن اللغة يجب أن تحلل على المستوى الصوتي الذي لا يختلف حتى وإن كتبت اللغة بالصينية، أو بطريقة برايل.

ولننتقل الآن إلى نقطة أخرى وثيقة الصلة بالموضوع، أعني موضوع الألف الذي نحن بصدد الحديث عنه، وهذه النقطة هي: «الجهر والهمس»، وهي تتعلق بالألف باعتبار أنه صوت منطوق لا حرف مكتوب، فنقول: من حيث الجهر والهمس: أصوات اللغة إما مجهورة أو مهموسة، ولا توجد حالة ثالثة، وهو قاسم مشترك بين جميع اللغات، ويرجع الجهر والهمس إلى طبيعة الصوت نفسه ولا دخل للمتكلم فيه، بمعنى أن هناك أصواتا مجهورة وأخرى مهموسة في جميع لغات العالم، وسببه تذبذب الحبال الصوتية عند مرور الهواء الخارج من الرئة بها عند النطق بالصوت، فأحيانا تتذبذب وتعرقل مجرى الهواء لدرجة أنها تؤثر على كمية الهواء الخارجة من بين الشفتين، فهو - أي: الهواء - مع المهموس أقوى منه وأكثر من المجهور، ويمكن تمييز الجهر والهمس، وقوة الهواء أو ضعفه تبعا لذلك بتجارب عملية يسيرة نصت عليها كتب اللغة[19]، وقد جعل الله لكل صوت مهموس

(19) انظر الأصوات اللغوية: ص 20.

قرينا مجهورا، فمثلا: التاء والدال، والثاء والذال، والسين والزاي، والشين والجيم، وهلم جرا. فالحرف الأول من هذه الثواني مهموس والثاني مجهور، وكل حرفين من هذه الحروف يشتركان في المخرج، والسر الإلهي يكمن في أن الأصوات الساكنة (consonants) توزع بالنسبة للجهر والهمس على النحو التالي: 50٪ مجهور تقريبا بينما النصف الآخر مهموس، ولكن هذه الحروف عندما تشكل منها كلمات تتخللها أصوات العلة (vowels) أو الحركات وهي كلها مجهورة، وهي حوالي 50٪ أيضا، فمثلا كلمة «كتب» تتكون من ثلاثة حروف: أصوات ساكنة، وثلاث حركات: أصوات متحركة، إذن تتكون كلمة «كتب» من ستة أصوات، الكاف والتاء فقط مهموسة، والباقية مجهورة، مما يسهل على الأذن التقاط الصوت بسهولة، ولو كانت الحركات مهموسة أيضا وهي تظهر بمقدار 50٪ بالإضافة إلى النصف الآخر المهموس - لأصبح معظم الأصوات مهموسة مما يجعل من الصعوبة بمكان على الإنسان التقاط الأصوات.

ونرجع الآن للألف بعد هذه الفذلكة عن الجهر والهمس، والتي لابد أننا قد استنتجنا منها أن الألف صوت مجهور، وهو يأخذ نصيب الأسد في الظهور مقارنة بأي حرف أو صوت آخر، وظهورها متنوع، إلا أنها على مستوى الكتابة أكثر ظهورا منها على مستوى النطق، إلا أن جانب النطق أهم بالنسبة لعالم اللغة، وهي تظهر على هذا المستوى مفخمة حينا ومرققة أحيانا أخرى وفقا لما يسبقها أو يلحق بها من الأصوات، وتظهر أحيانا ممالة إلى الكسرة وأخرى غير ممالة، فإذن للألف أنواع كثيرة، وهذا التفخيم أحيانا يغير المعنى[20]، وخاصة على مستوى اللهجات، فمثلا «جارٍ» أي: اسم فاعل من «جرى» للماء ونحوه، و«جاري» بمعنى قريب مني في السكن، الأولى مرققة والثانية مفخمة، وكذلك «خالٍ» أي فارغ، و«خالي» أي أخو

(20) فإن لم يغير المعنى فهو ألفون (allophone) وهو الغالب في الفصحى، وإلا فهو فونيم (phoneme) وهو ما يوجد غالبا في اللهجات.

أمي، وما دام الأمر كذلك فهل للألف هذه مخرج محدد كبقية الأصوات؟ يقول الزمخشري في كتابه المفصل[21] «الهمزة والهاء والألف من أقصى الحلق»، وقد نقل ابن يعيش عن سيبويه رأيا مشابها، إلا أن الجدول الذي اعتاد رسمه علماء اللغة المحدثون لشرح مخارج الحروف لا يثبتون فيه - عادة - حرف الألف، ويثبتون أختيها الياء والواو باعتبار أن الأخريين تعتريهما حالات تظهران فيها أنصاف سواكن (semi-consonants) في مثل «يوم و ليل»، أما الألف فإنه في الحقيقة يظهر جزءا من الصوت الذي يسبقه دائما لأنه الصوت الوحيد الذي لا تبدأ به الكلمة، أي إنه لا يظهر إلا معتمدا على صوت سابق، كما أنه يتأثر باللاحق أيضا، فمخارجه - إذن - كثيرة فيكون من الشفتين إذا سبق بباء أو ميم، ويكون من الحلق إذا جاء قبله حرف حلق مثل الخاء أو العين، الخ.

هذه هي الألف أكثر الحروف ظهورا في الكتابة، وأكثر الأصوات تغيرا في النطق، وله الباع الطويل في نقاش النحاة وتحليل الصرفيين، فقلما تجد كتاب نحو أو صرف أو لغة أغفل هذه القضية، بل كثيرا جدا ما تجد الألف في المعاجم وكتب اللغة والمقالات المختلفة عنوانا رئيسا، بالإضافة إلى أن كتب المعاجم تبدأ به عادة، وقد عرفه الإمام الرازي[22]، بأنه «حرف هجاء مقصورة موقوفة»، ولا أدري ما معنى قوله موقوفة !! هل تزيد عن معنى مقصورة أم هي هي؟ لأن الألف تكون ممدودة حتى تتولد عنها همزة، وتكون مقصورة عن المد[23] أي موقوفة عنه، ولعل الوقف درجة أقصر في النطق من الألف المقصورة، وهذه الألف - أعني الممدودة - أخذت في

(21) انظر: شرح المفصل لابن يعيش: ج 10، ص 123.

(22) انظر: مختار الصحاح: ص 1.

(23) هناك ألف تسمى ألف التأنيث، وهي مقصورة وممدودة، مثل: ليلى، وصحراء، وحيث إن معناهما واحد، وهو التأنيث فهما يعتبران ألومورف (allomorphs) لمورفيم التأنيث، وقد تلخص من هذا أن الألف قد تكون فونيما وألوفونا كما تكون مورفيما وألومورفا، وقد تكون صورة لا معنى لها ألبته.

الرسم العثماني خمسة أشكال كلها يصدق عليها اسم الفتحة الطويلة، وهي: المحذوف، المخصص، الانقلاب، المضفر والألف العادية، بالإضافة إلى ثمان كلمات في القرآن ترسم واوا وتنطق ألفا، وهي: «الصلوة، الزكوة، الحيوة، النجوة، الغدوة، كمشكوة، ومنوة، الربوا»، فكل واو في هذه الكلمات تنطق ألفا ممدودة، والرسم العثماني سنة متبعة.

والمقصورة ظهرت في شكلين هما: الألف مثل «دعا» و الياء مثل «مشى» وهذان الشكلان الإملائيان لم يختلفا في صورتهما لمجرد الاختلاف، وإنما بناء على قاعدة يجهلها هذه الأيام الكثير من المثقفين كالطلبة والكتاب وغيرهم ممن جعلوا القلم رفيق دربهم ومصدر رزقهم، وأصبحت اللغة العربية وقواعدها ـ وعلى رأسها الألف ـ أضيع من الأيتام على موائد اللئام حتى بين ذوي المستويات العالية، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولعل الله يجعل بعد العسر يسرا.

◆◆◆

مصادر ومراجع البحث

1. القرآن الكريم.
2. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، القاهرة، ت.ط: 1971م.
3. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، محمد الخضري علي، مطبعة الحلبي، مصر، ت .ط: بلا.
4. حاشية الصبان على الأشموني، مطبعة الحلبي، مصر، ت.ط: بلا.
5. شرح ابن عقيل بحاشية الخضري، مطبعة الحلبي، مصر، ت.ط: بلا.
6. شرح المفصل لابن يعيش، القاهرة، وبيروت.
7. لسان العرب لابن المنظور، بيروت.
8. مختار الصحاح، للإمام الرازي، المكتبة المصرية، ت.ط: 1976.
9. المعجم الوافي في النحو العربي، د: علي توفيق الحمد، المغرب 1992، م.
10. المفرد العلم في رسم القلم، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية، مصر، ت.ط: بلا.

◆◆◆